المانيا والمشرق العربي ١٨٧١ ـ ١٩١٨

(بيروت : الجامعة الجامعة الاميركية ، قسم التاريخ وعلم الآثار
٧ و٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٠)

د . غسان سلامة

عندما ينظر واحدنا إلى تاريخ المنطقة الحديث ، لا بد أن يتساءل عن « غياب » المانيا عن نادي الدول الأوروبية التي راحت تخطط لإنهيار السلطنة العثمانية ولوراثتها بينما هي تحاول الحفاظ على أفضل العلاقات مع زعماء اسطنبول ، لعلّها ـ إن لم تستطع لاحقاً القضاء على « الرجل المريض » ـ أن تبقي معه على شعرة معاوية . أين المانيا من هيمنة بريطانيا التدريجية على الخليج بدءاً من ١٨١٨ ؟ أين المانيا من دخول فرنسا الجزائر والشمال الافريقي ، ومن تحركات أسبانيا والبرتغال ، أين المانيا من هجوم نابوليون على مصر ومن هيمنة البريطانيين عليها بعد ١٨٨٢؟ أين المانيا من العداء المتحول بإستمرار إلى حروب قصيرة بين السلطنة العثمانية والامبراطوريتين المحيطتين بها : روسيا في الشمال وهي تسعى للحصول على اسطنبول والمضائق ، والهابسبورغ في الغرب يدافعون عن فيينّا أولا ثم يضيقون الرقعة العثمانية تدريجيا في البلقان؟

أين المانيا ؟ ... لم تكن المانيا قد ولدت بعد . إفتتح كمال الصليبي الندوة التي عقدتها الجامعة الأميركية بالتعاون مع مركز غوته ، عن « المانيا والمشرق العربي ١٨٧١ ـ ١٩١٨ » بإقرار أن الدراسة تدل على عدم وجود علاقات بين الطرفين . لم يكن لإلمانيا منفذ إلى المتوسط وكان العرب المشارقة كثيرو التعامل مع ايطاليا ومملكة صقلية . فإن كان من علاقة في القرون الوسطى ، فهي من خلال الطليان بمدنهم التجارية العامرة : امالفي ، البندقية ، ميلانو ، جنوى الخ ... أما مؤرخو العرب في تلك الفترة فما كانوا يعرفون وجود المان بين قادة الحملة الصليبية الثانية وجنودها وإن كان ابن الأثير قد تحدث ، في تلك المرحلة عن « ملك الألمان » وكذلك ابن خلكان . ولكن نقطة الالتقاء ، ولو كانت ظرفية ، ما لبثت أن وجدت على يد فريدريك الثاني الألماني والذي أصبح من خلال سلسلة من الوراثات المعقدة ملكاً على صقلية .

إن مكانة خاصة يجب ان تلحظ لفريدريك الثاني هوهنشتوفن (١١٩٤ ـ ١٢٥٠) الذي كان يتناقش مع أصدقائه في أمور الفلسفة والمنطق باللغة العربية كما كان متحمساً لعلوم الحساب والطب عند العرب . وهو الذي استقدم إلى صقلية جالية إسلامية دعاها إلى تأسيس مستعمرة تعيش فيها على هواها . إلّا أن فريدريك كان أيضاً عسكرياً فشن الحملة الصليبية السادسة التي ندد بها البابا قبل إنطلاقها . ولیت الصليبي ذكرّ مستمعيه بالعلاقات الحميمة التي كانت تربط

فريدريك بالملك الكامل الايوبي وبالامير فخر الدين بن الشيخ وبمعاهدة ١٢٢٩ التي استرجع فيها الفرنجة من الملك الكامل المدن المقدسة في فلسطين . ازاء ذلك ، وبالرغم منه ، اضطر البابا غريغوريوس التاسع لطرد فريدريك من الكنيسة سنة ١٢٣٩ بعد إتهامه بمصادقة المسلمين وبالتحالف معهم .

إلّا أن الإدريسي (في القرن الثاني عشر) يشير إلى وجود « برغونيا الألمانية » إلى جانب « برغونيا الفرنجية » بينما نرى ، في المقابل ابن خلدون في **مقدمته** يتكلّم عن البلغار ولا يذكر الألمان بكلمة من هنا استنتاج الصليبي أنه بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر ، كان العالم الإسلامي خارج إهتمام ألمانيا . إلا أن هذه الصورة الأحادية كان لا بد من تعديلها بعض الشيء دون نفيها تماماً وهذا ما قام به ماخر (من جامعة هامبورغ) الذي ذكّر بأن وفداً من تجار الخليج العربي زار ألمانيا في القرن السابع عشر بل أن باحثاً تونسياً (الجنحاني) وجد دراهم عثمانية في ألمانيا القرن الخامس عشر . من هنا الاعتقاد بأن طريق المواصلات التي ركزّ عليها الصليبي (المتوسط) كانت بالفعل تشهد منافسة من قبل طرق أخرى قد تمر إحداها بنهر الفولغا . وهناك إعتقاد بأن علاقات ما قد قامت (في المجال التجاري خصوصاً) بين العرب وألمانيا من خلال بلاد فارس فالقفقاس فالمانيا .

على أية حال كان العثمانيون ، سنة ١٨٧١ عند نشوء ألمانيا الموحدة في وضع إيجابي إزاءها . ومرد ذلك إلى أن العداء النمساوي / العثماني كان مستفحلاً منذ قرون أربعة ، كالصراع الروسي / العثماني بينما لم يكن بين ألمانيا والعثمانيين حدود ولا كان للألمان أطماع معروفة في مصر أو الخليج أو شمال أفريقيا كما لبريطانيا وفرنسا . وربما كان بسبب ذلك أن بسمارك لم يكن مهتماً فعلاً بما يحصل في الشرق . وقد خصص مومسن (من جامعة مونستر) مداخلته لتفسير إنعدام هذا الإهتمام . ففي رأيه أن « النظام الأوروبي » الذي أعيد بناؤه سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ كان يسكن ذهن موحد ألمانيا لدرجة أن أي منطقة أخرى من العالم لم تكن ـ إزاء أوروبا ـ إلّا حجارة شطرنج ثانوية . وهو لم يفكرّ بالتحالف مع تركيا فقال سنة ١٨٧٦ مثلاً : « إن تركيا ليست مستقرة بشكل كافٍ ليبنى معها حلف » فأسقطها من حسابه ليبني على أرض أوروبا « هيمنة فعلية » ألمانية بينما كانت بريطانيا تسيطر على البحار . ويرى مومسن أن خطة بسمارك الأساسية هي في دفع القوى الأوروبية للتصارع في الأطراف (مصر ، الهند الخ ...) لكي يبقى المركز (أوروبا) متوازناً . في هذا المجال دعم بسمارك هيمنة لندن على مصر بعد ثورة عرابي باشا على أمل أن يؤدي ذلك إلى فرملة الأمبرياليتين الروسية والنمساوية . لكن بسمارك كان يشدد على الإنكليز بالحفاظ على السيطرة الصورية للباب العالي على مصر ، لأن الإبقاء على الشرعية العثمانية كان بنظره شرطاً لعدم دخول الدول الغربية في تنافس حاد على الإرث ممّا قد يخرّب التوازن الداخلي الأوروبي .

لكن السياسة الألمانية سوف تتغير بعد عقدين من ذلك فيبدأ في برلين إهتمام نشط بتدعيم المواقع الألمانية في الامبراطورية العثمانية خصوصاً من خلال الإستثمار . وقامت علاقة قوية بين السلطان عبد الحميد الثاني وبرلين كما فتحت زيارة ويلهلم الثاني ، في تشرين الأول / أكتوبر ١٨٩٨ إلى سوريا وفلسطين الباب أمام مزيد من التعامل . وأدى هذا إلى حماس واسع في الرأي العام الألماني للتدخل المالي والاستراتيجي في تركيا . لكن تحالف « تركيا الفتاة » مع بريطانيا قضى مؤقتاً على هذا الحماس ، كما كانت حرب البلقان كارثة فعلية . ولكن العلاقات الألمانية ـ العثمانية ما لبثت أن تحسنت مجدداً بحيث أختتم مومسن مداخلته بهذا القول : « كانت ألمانيا ، سنة ١٩١٤ ، مستعدة لدخول الحرب ضد أي طرف للمحافظة على مصالحها في تركيا » .

لكن النقاش ، هنا أيضاً ، أدى إلى تعديل في

هذه الصورة ، وإن لم ينفهـا . ذكرّ محمود زايد مثلاً بأن بسمارك كانت له إهتمامات إستعمارية أكثر ممّا ذكر مومسن (الكاميرون مثلاً) كما أن بروسيا كانت بين الدول التي ضمنت سنة ١٨٦١ نظام المتصرفية في لبنان . هذا وقد حصلت في ألمانيا ردة فعل مهمة بعد التوافق البريطاني ـ الروسي سنة ١٩٠٧ بإتجاه مزيد من التقرب إلى تركيا . ولكن الأهم في كل ذلك ـ وهو ما أقر به مومسن نفسه في نهاية النقاش ـ : « لم تكن سياسة بسمارك في تحويل الصراعات بين الدول الكبرى من أوروبا لكي تتفجر خارجها فاشلة فحسب بل أدت ، فوق ذلك ، إلى مزيد من الحدة في هذه الصراعات » .

شولفن ، (من مونستر ايضاً) ، رأى أن سياسة ألمانيا المشرقية مرتبطة أساساً بمسار العلاقات الألمانية ـ البريطانية . وقد أصاب بقوله إن مشروع سكة حديد الأناضول بـدأ في ألمانيا كمبادرة مالية فحسب ثم تطـور مع الوقت إلى مسألة سياسية بسبب ردود فعل الدول الأوروبية الأخرى التي رأت فيه خطراً على مصالحها. لكنه ربما بالغ في أهمية ربط المسألة الشرقية بالعلاقة بين لندن وبرلين بحيث يرى عودة النفوذ الألماني في الأمبراطورية العثمانية بعد ١٩١٢ من خلال منظار ضيّق هو تحسن العلاقات الألمانية ـ البريطانية متناسياً خيارات اسطنبول نفسها ، وحرب البلقان ، وبداية التحركات القـومية وخصوصاً التهيئة الواضحة للحرب العالمية الأولى .

وقد خصصت الندوة جلسة كاملة حول موضوع سكك الحديد وليس ذلك بمستغرب ، فحولها تمحورت السياسة الألمانية إزاء الشرق . رشيد الخالدي شدد عـلى الجوانب المـالية للموضوع وتمنى إجـراء دراسات لأرشيف المصارف الأوروبية الكبرى إلى جانب أرشيف الدول . وعن سكك الحديد رأى الخالدي لألمانيا إمكانية كبرى وخطراً مهماً . لكنه شدد على أن المنافسة بين الدول الأوروبية لم تكن مهمة بقدر التعاون بينها . فالدويتشـه بنك هي التي سعت لإدخال الرأسماليين الفرنسي والبريطاني في المشروع نظراً لضخامته . وبينما كان السياسيون في باريس ولندن متأففين ، كان رجال الأعمال أكثر حماساً . أما تأرجح السياسيين فمرده إلى الورطة التي كان عليهم مواجهتها : ترك المشروع للألمان بمفردهم سوف يعطيهم مـوقعاً ممتـازاً في الامبراطورية العثمانية وسوف يمكنّ هذه الأخيرة من تقوية دفاعها إزاء الهجمات الإستعمارية البريطانية والفرنسية . من هنا ـ وبعد تلكؤ فرنسي دام سنوات ـ تحولت سكك الحديد العثمانية إلى ما يمكن اليوم تسميته « بشركة متعددة الجنسيات » .

ماخر (هامبورغ) ذهب في نفس المنحى : يجب البحث عن أشكال التعاون بين الدول الأوروبية لا عن تنافسها فحسب كما ذهب التقليديون . وذكّر في مداخلته أنه إزاء التنافس السياسي المستمر كان عالم المال الاوروبي يشهد مستوى متقدماً من الإندماج والتداخل . كما يرى أن الهواجس المالية كانت مسيطرة على كل مشروع «البغداد بأهن» فدرست إمكانية تأميمه ووضعت شروط ضمانة ، واختيرت الطريق والمواد المستعملة بحيث يكون تنفيذ المشروع بخسا بقدر الإمكان ، وتقرر الإسراع في التنفيذ لبدء جني الأرباح بسرعة وتم تثبيت ضمانات غربية عـلى رؤوس الأموال المستثمرة «لأن الضمانات التركية غير كافية» . وقد أدى ذلك إلى مساس تدريجي بالسيادة العثمانية .

مداخلة شولش (من إسن)، تركزت على السياسة الألمانية إزاء فلسطين فركّز بحثه على هوية المستعمرين «التمبلرز» الألمانية الذين أرادوا القيام «بحملة صليبية سلمية» لاستعمار فلسطين . وشجعت الحكومة هؤلاء خصوصاً وأن روسيا كانت قد أنشأت قنصلية لها في القدس سنة ١٩٤٢ وكذلك بريطانيا قبلها بأربع سنوات . وسعت بروسيا لأن تكون مطرانية القدس البروتستانتية بالتناوب بينها وبين بريطانيا ، لكن قائد «التمبلرز»

اضطر للإقرار سنة ١٨٨٢، «أنه من الصعب طرد العرب من فلسطين فهم الأكثرية وهم شديدو الدفاع عن أنفسهم، والشرعية إلى جانبهم»، لكن الصهاينة استفادوا جدا من هذه التجربة فاهتموا بالمسائل الدفاعية بادىء ذي بدء كما أخذوا عن المستوطنات التمبلرية عدداً من التقنيات. ولكن شولش ركّز على أن الدولة الألمانية، التي كانت ترحّب بهذه البادرة الإستعمارية، كانت أيضا حريصة على أن لا تجد نفسها مرغمة للدفاع عنها بوجه السلطان. فالأولوية في برلين لم تكن للتدخل الاستعماري الاستيطاني بل للعلاقة الحسنة بل المميزة مع اسطنبول. وربما كان هذا أحد الأسباب العامة لفشل الاستيطان التمبلري.

وقدم شولڤن (مونستر) ورقة أخرى للندوة حول دور الرأي العام الألماني في تحديد السياسة الشرقية لبرلين، إلا أن مداخلته خلت من اللمعان فجاءت جمعية وصفية كما لم تعط صورة واضحة عن دور المستشرقين الألمان في تلك المرحلة بل تركزت على الجمعيات التجارية ومجموعات المبشرين ومشاريع المدارس.

ومن وجهة نظر العرب قدّم كل من سمير صيقلي ومروان بحيري، دراسة عن صورة الألمان لدى العرب. الأول درس مجلّة **المقتبس** الدمشقية وكتابات محمد كرد علي إجمالا. ووصل إلى أن لدى كرد علي كان الغرب وحدة ثقافية ساهم تحرر العقل في بنائها. كان وجود ألمانيا معروفا ولكنها لم تكن قريبة للذهن. إلا أنها سعت لمصالحها الإقتصادية فكان دخولها إلى الإمبراطورية العثمانية سلميا لا فتحا عسكريا. وقارن كرد علي بين القوى الاستعمارية فرأى إنكلترا وفرنسا تذهبان في كل مغامرة استعمارية بينما برلين تقتصد في إمكانياتها. لكنه اضطر للإقرار بأنها، هي أيضا، دولة استعمارية.

بحيري اهتم بمجلة **المباحث** الطرابلسية الشهيرة التي كان يصدرها جرجي وصموئيل يني بعد ١٩٠٨ وكان يوزع منها على الأرجح ٣٠٠ إلى ٤٠٠ نسخة ولكن تأثيرها في المغتربات كان ذا شأن. رأى الأخوان يني في الوحدة الألمانية تغيرا مهما في ميزان القوى العالمي كما أعجبوا بنشاط الألمان وتنظيمهم وحماسهم. وبدا التطور في موقفهم من خلال متابعتهم لمشروع سكك الحديد. فرأوا فيه سنة ١٩٠٩ خطراً على السيادة العثمانية وتقوية للمصالح الألمانية وتخريباً للاقتصاد المحلي وكارثة مالية محتومة، بينما برزا سنة ١٩١١ يهنئان سوريا على سككها ويريان في سكة بغداد منافع جمة لسوريا. وفي تطور موقفهما أكثر من دلالة حول علاقة مثقفي تلك المرحلة بالمشاريع الغربية.

بعد الندوة، بقيت اسئلة كثيرة مغلقة: هل كانت لألمانيا سياستان في الشرق، واحدة مع اسطنبول وأخرى مع قوى قومية أو دينية ساعية للتحرر من الوصاية العثمانية؟ هل كان مشروع سكك الحديد في ذهن أصحابه في برلين مشروعا ماليا بحتاً؟ ما هي العلاقة بين انخراط الألمان في الإمبراطورية العثمانية واندلاع الحرب العالمية الأولى؟... كما لم يحدثنا المتكلمون إلا لماماً عن ليمان فان ساندرس والمساهمة العسكرية الألمانية المهمة في الدفاع عن تركيا. لكنها من ناحية أخرى أبرزت أهمية إعادة النظر في بعض المعتقدات السائدة حول الإمبراطورية العثمانية في عقودها الأخيرة، وهي عملية تتعالى الدعوة للقيام بها من أكثر من مصدر.

سنة ١٩٠٧ نشر الكاتب الفرنسي فيكتور بيرار كتابا بعنوان «السلطان، الإسلام والقوى العظمى»، كتب فيه (صفحة ٦٨): «بعد ١٥ عاما من تحالف عبد الحميد مع الألمان، بدت الإمبراطورية التركية كالتالي: السلطان تحت وصاية برلين، والشعوب تحت نفوذ لندن». هل ولد المشرق العربي المعاصر في تلك الشروط المذلّة؟□